الرحمة والترف

للقديس يوحنا ذهبي الفم

مترجمة بتصرف من :

N. & P. N. Fathers
First Series, Vol. XIII

من تفسير رسالة كولوسي

علمكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

فى هذا الكتاب تجد أقوالا نفيسة عن الرحمة وعن الترف القديس يوحنا ذهبى الفم عن كتاب :

« N. & P. N. Fathers, First Series, Vol. X III »

حقاً انه لا يكفى التوبة عن الخطية وعدم اتيان الشر بل ينبغى عمل الاعمال المرضية لله والرحمة مع الآخرين - لأنه أمين وصادق قول الرب « طوبى للرحماء لأنهم يرحمون » .

فى قصة الغنى ولعازر الواردة فى الإنجيل المقدس نرى أن الغنى كان يتنعم كل يـــوم بالمأكل والملبس ، ولم يأت شيئاً من الرحمة ، ومع أنه لم يذكر عنه أنه كان يفعل السيئات لكنه هلك معذبا لأنه كان قاسى القلب عديم الرحمة ...

كذلك العذارى الجاهلات اللاتى لم يأخذن زيتاً فى آنيتهن - وهو عمل الرحمة - كان نصيبهن الهلاك ...

ومن أجل ذلك نرى أن السيد الرب عندما يدعو مختاريه للملكوت لايقول لهم سوى :

« تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم لأنى جعت فأطعمتونى ، عطشت فسقيتمونى ، كنت غريبـــاً فآويتمونى ...» متى ٢٥ : ٢٤ - ٣٠ .

ليت الرب يصنع معنا رحمة كعظيم رحمته بشفاعة القديسة العذراء مريم وجميع صفوف القديسين آمين ؟ .

الرحمـــة

مقدمة عن أسباب الصداقة :

يقول ذهبى الفم :

هناك أسباب كثيرة تنجم عنها الصداقة :

تنشأ الصداقة الطبيعية عن العلاقات فى الحياة . فمن الناحية الاجتماعية مثلا نرى من ينال إكراما ، أو يجد صديقاً قديماً فى العائلة ، أو يكون زميلا على المائدة أو فى أسفار كثيرة ، أو جاراً لآخر .

ومن الصداقة ما يكون من ذات المهنة وهذه الاخيرة ليست دائماً خالصة ، لانها قد تتأثر ببعض المنافسة والغيرة . بخلاف الصداقة الطبيعية كصداقة الآب لابنه ، والابن لأبيه ، والأخ لأخيه ، والجد لاحفاده ، والأم لأبنائها ، وأيضاً صداقة الزوجة لزوجها ، لأن كل الارتباطات الزوجية هى أيضاً من سنة الحياة .

ومن الصداقة ما هو أقوى ، حتى بالنسبة للصداقة الطبيعية ، فيظهر الأصدقاء أحياناً استعدادا أفضل ونبلا أكثر مما يظهره الإخوة أو الأبناء نحو آبائهم ، فبينما نرى من أنجبـــه الإنسان لا يريد أن يعينه ، نجد من لم يعرفه يقف بجانبه .

المحبة الروحية أعلى من الكل ، هى مَلِكة تحكم كل رعاياها ،

وفيما يكون الطهر واضحا ، لأنها لا ترتبط بأى شىء أرضى، أو علاقة عادية ، أو مكاسب ... انها نازلة من فوق، من السماء ...

يقول القديس بولس الرسول : « فإنى كنت أود لو أكون أنا نفسى محروما من المسيح لأجل إخوتى أنسبائى حسب الجسد» (رو ٩ : ٣) . أى أب يود لو تكون حالته كهذه ؟ وقوله إنه محصور من الإثنين : « لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح . ذاك أفضل جداً . ولكى أبقى فى الجسد ألزم من أجلكم » فى ١ : ٢٣ - ٢٤ .

وأيضاً : «وأما نحن أيها الإخوة فإذ قد فقدناكم زمان ساعة بالوجه لا بالقلب اجتهدنا أكثر باشتهاء كثير أن نرى وجوهكم» ١ تس ٢ : ١٧ .

حقاً أنه هنا ، حينما تلحق الأب إهانة قد تبرد محبته ، لكن ليس هكذا الحال بالنسبة للمحبة الروحية ، لقد ذهب القديس بولس إلى الذين رجوه سـاعيا فى عمل الخير لهم . لأنه لا شىء أقوى من رباط الروح . لأن من يصبح صديقا من جراء تسلمه أرباحا ، سوف يصبح عدواً إذا انقطعت عنه . والذى جعلته العلاقة العادية غير مفترق ، سوف يترك صداقته تنطفىء حينما تنقطع العلاقات ، وإذا حدث خلاف تترك الزوجة زوجها وقد

تنطفىء محبتها ، والابن حينما يرى أن أباه وصل إلى شيخوخة كبيرة يصبح غير راض . لكن فى المحبة الروحية ليس شىء من هذا ، لأنها لا يمكن أن تنحل لسبب من هذه الأسباب نظراً لأنه لاتدخل فيها عناصر الزمن وطول السفر، ولاتتأثر بالكلام السيء ولا الغضب ولا الإهانة، ولا شىء يقهرها أو يستطيع فصلها.

وقد طلب موسى النبى من أجل الذين كانوا يريدون رجمه : فصرخ موسى إلى الرب قائلا « ماذا أفعل بهذا الشعب . بعد قليل يرجمونى » خر١٧ : ٤. أى أب يفعل ذلك من أجل من يرجمه ؟، كان يهم برجمه حتى الموت ...

الرحمة بالفقراء :

لنتبع إذن هذه الفضائل النابعة من الروح ، لأنها قوية ، وصعب انهاؤها، ونترك تلك الصداقات التى تقوم على المائدة ...

اسمعوا السيد المسيح يقول فى الإنجيل : « وقال أيضاً للذى دعاه إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدع أصدقاءك ولا اخوتك ولا اقرباءك ولا الجيران الأغنياء لئلا يدعوك هم أيضاً فتكون لك مكافأة . بل إذا صنعت ضيافة فادع المساكين الجدع العرج العمى » لوقا ١٤ : ١٢ - ١٣ .

حقاً ، عظيمة هى مثوبة هذه الأعمال . إنك لا تستطيع

ولا تحتمل أن تقيم وليمة للعرج والعمى ، بل انك تحسبها مهانة وشيئاً مخزيا فترفض . وكان الأفضل حقاً ألا ترفض ، على أى حال ليس ذلك ضرورياً . إذا كنت لا تجلسهم معك ، فأرسل إليهم مما على مائدتك . ان الذى يدعو أصدقاءه ، لايأتى عملا كبيراً : لأنه أخذ أجره هنا ، لكن الذى دعا الجدع والفقراء فله الله كدين . فلا تتذمر إذن حينما لا تأخذ مكافأة هنا ، لحينما تأخذ ، لا يكون لنا رصيد هناك ، وبنفس الطريقة ، إذا كان الإنسان يكافىء، فالله لايكافىء، وان كان الإنسان لايكافىء لحينئذ تكون المكافأة من الله. إذن فلا تبحث عمن لديهم المقدرة لأجل المنفعة فيردوا لنا ثانية ، ولا تمنحهم رعايتنا متوقعين مثل هذا : انها فكرة خاطئة أن تدعو صديقاً ، فالعرفان بالجميل يبقى حتى المساء ، والصداقة لظرف الدعـــوة تذهب بسرعة أكثر من تكفلك بالنفقات . لكنك إذا دعوت الفقراء والجدع ، فلن يفنى عرفان الجميل أبداً ، لأن الله ، الذى يذكر دائما لاينسى أبداً ، لك هو نفسه كدين . ما هذا التسرع فى الاشمئزاز حتى لا تستطيع أن تجلس فى صحبة الفقير ؟ . لعلك تقول انه قذر غير نظيف ؟ أعطه لكى يغتسل وافتقاده إلى مائدتك . لا تيابه قذرة ؟ إذن فأبدلها وأعطه ملابس نظيفة . ألا ترى كم هو عظيم ذلك الربح؟ ان المسيح يأتى إليك عن طريقه ، وأنت تحسب حسابا تافها لمثل

هذه الأشياء ؟ . حينما تدعو الملك إلى مائدتك أتخشى أشياء مثل هذه ؟ ! !

اننا إلى الآن لانبحث عن الأشياء التى هى بعد الومن الحاضر فلا زلنا نشتاق إلى الأمور التى ترى - الزمنية - ولا نتوق إلى الأمور التى لا ترى - الأبدية - . . . إلى مائدة الفقراء يكون المسيح جالسا ، وإلى المائدة الأخرى أناس جلوس. الأولى لها السيد وللأخرى الخدام .

وإذ ندع هذه الأمور الآن لنرى أية واحـــدة منها لها النصيب الأكثر من اللذة الحاضرة. انه بالنسبة لهذا أيضاً فالأولى لها قسط أعظم، لأن الجلوس مع الملك له بهجة أكثر من الجلوس مع خدامه. فى الأولى له أن يسمع ويرى كل شىء بحرية وبارتياح وفرح فى المحبة الروحية . . . أما الآخرون فيتضايقون ويخافون ويخزون أمام الذين يجلسون معهم من الكبراء والعظماء . وكأنهم أمام سادة ويخشى بأسهم . لكن يقول أحد أن الشرف لعظيم . كلا ، بل الآخرون فى شرف أكثر ، لأن حالة الأولين الوضيعة تظهر بالأكثر ، حتى وهم مشتركون فى نفس المائدة أيضـــاً ، الكلمات التى ينطقون بها كلمات عبيد ، لأن العبد يظهر هكذا أكثر وضوحا من أى وقت حينما يجلس مع سيده ، لأنه فى مكان

لا يجب أن يكون فيه ، وليس له أيضاً من جراء هذه القربى كرامة كثيرة بقدر ما له من الذلة .. لأن الوضيع حينما يكون قريباً من المتعالى يظهر وضيعاً أكثر لأن المقارنة تجعله كذلك ولن يظهر أعلى مما هو عليه .

تتبين فى هذين الأمرين إذن الأفضلية ، الأفضلية فى الحرية وفى الشرف الذى لا يعادله شىء ، لأن لقمة يابسة مع الحرية أفضل من آلاف الذات مع العبودية، والكتاب المقدس يقول: « أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة » أم ١٥ : ١٧ ، لأنه مهما قال الكبير فى هؤلاء يلزم على الحاضرين أن يمتدحوه ، هم فى درجة المتطفلين، أو بالحرى منهم، لأن المتطفلين بالحقيقة هم فى خزى ومهانة ...

ان كثرة الأطعمة الفاخرة تبيد بالاهتمام الذى يسبقها وقد يلحقنا بسببها التخمة وهذه تهدم أجسادنا وتتلفها .

ويضار الإنسان بالتخمة أكثر مما بالجوع، فالجوع يمكن أن نتحمله بسهولة أكثر من التخمة ، نستطيع أن نتحمل الجوع لمدة طويلة ، أما التخمة فلها آثار سيئة على أجسادنا . ونرى سكان الريف الذين يجاهدون بصفة مستمرة أصحاء لا يحتاجون إلى أطباء.

الشرف خير من العار ، والحرية خير من الخضوع ، وثقة

الرجل خير من الخوف . وإذا كان التمتع بما هو كاف خير من الانغماس فى تيار الترف ، فلذلك تكون هذه المائدة أفضل من الأخرى ...

إن الداعى للولائم أو يدعو الأصدقاء يستعد لعدة أيام هو مضطر أن يتحمل الانزعاج وكثرة الإهتمامات والنفقات، وحينما يأتى يوم الوليمة يبدو على وجهه خوف أعظم من خوف الذين يذهبون إلى مباراة الملاكمة ، لأنه يخشى أن يباغته من الأمور ما لا يتوقع . أما الآخر فبعيد كل البعد عن هذا التفكير المقلق والانزعاج الماضى ، لأن كل الأمور تسير فى بساطة ويسر، وقد يخسر الأول عرفان أصحابه بالجميل ، وكان الله للآخر كدين، وهو فى كل يوم يفرح لأن أجره فى السماء باق لا يزول ...

تسمع فى ولائم الأغنياء أصوات المزمار والقيثارات والأعواد ، أما هنا فلا توجد أصوات غير لائقة ، لكن ترانيل وترانيم ومزامير . هناك بالحقيقة يرتلون للشياطين ، أما هنا فلسيد الكل ، الله تعالى . ترى بأى عرفان للجميل تمتلىء الواحدة وبأى نكران وجحود تمتلىء الأخرى ؟ . نعم لحينما يكون الله قد غذاك بخيراته تقدم لجلاله الشكر وتقول: «مبارك أنت يارب لأنك غذيتنى بخيراتك » .

أما بعد الترفيه الوافر يكون البطر وأيضاً التخمة والسكر

وقد يجعلان صاحبها مثل العرج والقطع ، وكما تكون أجساد هؤلاء العميان والقطع والعرج تكون أرواح هؤلاء في الكبرياء والبطر والسكر أشد قبحاً . وأولئك الذين يبحثون عن الكفاف وحده ولهم فلسفتهم في ذلك هم في ضياء جزيل ...

هناك مسرات الدنس والضحك الخليع والسكر والمجون والكلام القبيح ، وأما هنا فيغلب حب الإنسانية والعطف والوداعة والتعفف .

هناك القساوة عن طريق الظلم والخطف وقد تنتهي إلى اختلال الوعي والهذر وسائر مخلفات المجد الباطل ، أما هنا فيطيب تقديم الشكر والمجد لله .

ان الذي يرحم الفقراء ويجلسهم إلى مائدته ينجيه الرب من الشدائد والضيقات في هذا الدهر ويخلصه من العذاب الأبدي في الدهر الآتي حينما يأتي ليدين المسكونة بالعدل ويجازي كل واحد حسب أعماله . الأولون يدخلون إلى الفرح بعدما يسمعون أمام العالم أجمع ، « لأني جعت فأطعمتموني ، عطشت فسقيتموني كنت غريباً فآويتموني » متى ٢٥ : ٣٥ . أما الآخرون فيسمعون العكس ، العبد الشرير الكسلان ، وأيضاً : « ويل لكم أيها المضطجعون على أسرة من العاج والمتمددون على فراشهم والآكلون خرافاً من الغنم وعجولاً من وسط الصيرة . الهاذرون

مع صوت الرباب المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان ولا يغتمون على انسحاق يوسف » عا ٦ : ٤ - ٦ .

قد يقول قائل اني أريد أن اتخذ بعض الأصدقاء لكن مثل هذا الإنسان فانه أنه ليس أتفه من الرجال الذين يصيرون أصدقاء عن طريق المائدة والتخمة ... أما موائد الفقراء فلا توثق عرى الصداقة مع الناس بل مع الله . انها صداقة متينة ، فاهتم أن توطدها ...

ان الله لا يطلب منا أن نعطي كثيراً أو قليلا ، لكن ما لا يقل عما في مقدورنا . أنظر إلى صاحب الخمس وزنات والذي له الوزنتان . « فأعطى واحداً خمس وزنات وآخر وزنتين وآخر وزنة . كل واحد على قدر طاقته . وسافر للوقت » متى ٢٥ : ١٥ . ولنفكر في التي ألقت هذين الفلسين « فجاءت أرملة فقيرة وألقت فلسين قيمتهما ربع » مر ١٢ : ٤٢ . وتلك الأرملة التي كانت في أيام أليشع (١ مل ١٧) . هذه التي ألقت الفلسين لم تقل ، وأي ضرر يكون إذا احتفظت بالفلس الواحد لنفسي ، وأعطيت الآخر ؟ ، بل أعطت كل معيشتها . فلننظر إلى أنفسنا في العطايا التي نقدمها لله ... ولا نهمل أمر خلاصنا ، لنوطد أنفسنا على

الإحسان ، فلا شيء أفضل منه وسوف يظهره الدهر الآتي ، ويظهر في الحاضر أيضاً .

لنحيا إذن لمجد الله ، ونعمل الأمور التي ترضيه لكي نحسب مستحقين للخيرات المنتظرة ، ليلقنا نالها جميعاً ، بالنعمة ومحبة البشر التي للمسيح يسوع ربنا ، الذي له المجد إلى الأبد آمين ؟

† † †

الـــترف

الترف لذة وقتية زائلة

إذا أردت أن تفحص قيمة الترف . تأمل قليلا لتعلم، أليس غباراً ؟ نعم ، إنه يمضي وشيكا بسرعة أكثر من الغبار ، لأن لذة الترف تصل فقط إلى اللسان ، أو تكون حينما تمتلىء البطن بالطعـــام .

ولن تكون الكرامة في ذاتها مبهجة وسارة إلا حينما تكون عن حرية اختيار وعن استعداد ذهني ، ولست بحاصد لهذه الكرامة بسبب ثروتك .

قد يكرمك الناس لأجل كبير مع ما يعرفونه عنك انك

غير أهل لشيء من هذا ، وإنما هم مضطرون إلى تكريمك من أجله . فهل هناك ما يجلب عليك تورطاً أكبر من هذا . جعلت ثروتك سبباً للخزي لأنهم إنما يكرمونك بسبب مالك وبما تغدقه على أصحابك ، أما في بواطنهم فيخفون الاحتقار والازدراء ، وتقوم ثروتك برهاناً على الضعف أكثر مما هي على القوة . أفلا يكون من السخف أن نحسب من ذوي المنزلة الرفيعة ونحن نكرم من أجل المال . الأفضل ألا نكرم بتاتاً من أن نكرم بهذه الطريقـــة .

إن قال لك أحد إني افتكر انك لا تستحق كرامة البتة ، لكن لأجل خدامك أكرمك ، هل يكون هناك حرج أكثر من هذا ، وإن كان الإكرام لأجل الخدام ، الذين هم شركاء معنا في الإنسانية بسبب المذمة ، فكم تكون إذا كنا نكرم لأجل الحجارة ، وأفنية المنازل ، والأواني الذهبية والملابس؟ إن ذلك بالحقيقة ذلة وعار ، وخير لنا ألا نكرم بهذه الطريقة . لأنه إذا وقعت في خطر بسبب كبريائك وتلمست من وضيع أن ينقذك فهل هناك ما يملأ القلب غصصاً أكثر من ذلك ؟

ما هي معايير الكرامة ؟ ترى هل أيدي الطباخين هي التي تجعلنا أهلا للاكرام ونعترف لهم بالفضل والشكر إذ يقدمون

لنا من اللحوم على المائدة ؟ أم اصناع المعادن والحلوى ومعدى الموائد ؟

انك لن تجد نفساً مفعمة بالشهوات المفرطة مثل نفوس أولئك الراغبين فى أن يصيروا أغنياء . هى تفاهة يصورونها لأنفسهم ، أمسوا كرسامى الوحوش نصفها إنسان ونصفها حصان ، أو لها رأس أسد وذيل ثعبان أو جسم عنزة تلفظ ناراً من أفواهها ، أو الكائنات التى لها أقدام التنانين ...

ولو أردنا أن نأتى بصورة لشهوة واحدة من شهواتهم مع كون هذه الصورة لا يمكن أن تظهر شيئاً البتة من القبح بجانب ما يتصورون ، ففى نفوسهم صورة لكل حيوان مفترس ...

وان قوما وصلوا إلى هذا الحد من الترف ويتمنون لو أن كل شىء أصبح لهم ، واخوانهم المخلوقون على صورة الله يهلكون من البرد والجوع ويسرون إذ يرون غيرهم يعانون الفاقة وهم فى النعيم مقيمون ، فأى صفح من الله هؤلاء يرتجون ؟ !

المجد لك أيها المسيح ، كم من الخيرات اغدقت علينا ؟ لقد اعتنيت بنا وحررتنا من الجهالة وقصور الإدراك ...

ويقول القديس : إنى انذركم سلفاً ، إنى لا أنصح بعد بل

آمر ، وليطع من شاء ، وان استمر النساء فى عدم الاحتشام فلن أقبل ولن أسمح لهن أن يعبرن هذه العتبة ، لأنه ما حاجتى إلى جمهور من النساء ، لا يقبل التعاليم ؟ إنى أمنعهن لأن القديس بولس ينهى عن زينة النساء .

يقول : « وكذلك ان النساء يزين ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بضفائر أو ذهب أو لآلىء أو ملابس كثيرة الثمن » ١ تى ٢ : ٩ .

وإلى الشباب أزجى النصح وعن المخالفين لن أرضى .

الرسل لم يكونوا سوى اثنى عشر رسولا ، واسمعوا ما قاله السيد المسيح لهم « ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا » يوحنا ٦ : ٦٧ .

إننا إذا أسرفنا دائما فى إطرائكم ، ففى نصلحكم ؟ أو متى تخدمكم ؟ لكن يقول قائل : « هناك طوائف أخرى وإليها الناس يذهبون » . ان هذا الرد غير مقبول لأن واحداً يفعل مشيئة الرب أفضل من عشرة آلاف من المخالفين ، فماذا تختار لنفسك ؟ أيكون لك عشرة آلاف تابع من الهاربين واللصوص ، أم واحد يحبك .

إنى انصحكم وآمركم أن تحطموا تلك الزيجات وتسلكوا بخوف الله ...

من شاء فليتركنى فى الحال، ومن شاء فليتهمنى ، فلن احتمل المخالفة وإنى مزمع ان أحاكم لدى محكمة المسيح . أنتم تقفون بعيداً ، بينما أنا أعطى الحساب كما يقول القديس بولس أيضا : « إنى إذا جئت أيضا لا أشفق » ٢ كو ١٣ : ٢ .

لكن ان فعلتم كما يجب حينئذ تعلمون كم يكون الربح عظيما والامتياز كبيراً . إنى أرجوكم وأتوسل إليكم ، ولا أرفض أن اعانقكم ان أطعتم ... كم من فقراء يقفون حول الكنيسة لهم أولاد كثيرون ، ومنكم الاغنياء لا يخففون عبء ثقل الحياة - الواحد يجوع والآخر يسكر - ١ كو١١: ٢١ - واحد يمتلىء حتى يتخم من مختلف أنواع الأطعمة وآخر ليس له حتى الخبز !!

لنترك طرقنا الشريرة ولنحيا لمجد الله فنخلص من العقاب فى العالم الآخر ، ونتنال الخيرات الموعودة للذين يحبونه وله المجد إلى الأبد آمين ؟

لا تنسى اقتناء كتاب شرح حسابات الكنيسة تاليف : مليكه حبيب يوسف ويوسف حبيب